

في بركات عيد الميلاد المجيد، نود أن نتحدث عن قديسة الميلاد السيدة العذراء الممتلئة نعمة ولماذا اختارها رب بالذات لهذا المجد العظيم

دروس من حياة العذراء¹

لقد وعد الله الإنسان بالخلاص، وقال له أن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية. ومرتآلاف من السنين إلى أن تم هذا الخلاص. ولعل من أهم أسباب هذا الانتظار أن رب كان ينتظر الفتاة القدسية الطاهرة التي يمكنه أن يحل في أحشائها.

كان ملء الزمان ينتظر هذا الفتاة القدسية. آلاف من النساء وجدن على الأرض. كل واحدة منها كانت تشتتهي أن يولد منها المسيح، حتى أن العقم حسب في ذلك الزمان عازاً... ولكن رب لم يحل في أجسام أيه واحدة من كل تلك الآلاف من النساء.

كان لابد من وجود فتاة من نوع معين، تكون أهلاً لأن يأخذ الله منها جسداً: لم تكن أيه فتاة تصلح لهذا الأمر. كان لابد من واحدة تتميز بصفات خاصة تؤهلها لهذا العمل العظيم... وكانت العذراء مريم هي هذه الواحدة التي انتظرتها الأجيال الطويلة.

فما هي الصفات التي أهلتها لهذا المجد وهذه الطوبى؟

+ اتضاع العذراء

كانت أول صفة تشرط فيها هي التواضع. إن المسيح إلهنا المتواضع، كان لابد أن يختار فتاة متواضعة لكي يولد منها.

ذلك لأن الفتاة المتواضعة هي الوحيدة التي تستطيع أن تحتمل هذا المجد العظيم الذي به تدعى "والدة الله"...

حقاً، من هي التي تستطيع أن تحتمل هذا اللقب العظيم الذي لم يطلق على امرأة أخرى في الوجود؟ من تحتمل الجبل الإلهي المقدس، وتعلم أن الروح القدس يحل عليها، وقوة العلي تظللها، وتعلم أن القدس المولود منها يدعى ابن الله؟ من تحتمل هذا؟ ومن يمكنها أن تحتمل أيضاً ظهورات الملائكة، وكثرة الرؤى والمعجزات والأعاجيب التي تصحب وجود الله الكلمة فيها ومعها؟ ... هل أية فتاة أو امرأة يمكنها أن تحتمل كل هذا المجد، وكل ما يقابلها من تطويق ومديح؟!

إن لم تكن فتاة متضعة ومنسحقة النفس من الداخل، فإن كل تلك الكرامة لابد أن تهزها هزاً وتتعبيها. لذلك كان لابد من فتاة لها من عمق الاضاع ما يعادل علو تلك الكرامة. وهنا يظهر سمو العذراء.

في العلم نساء كثيرات لا يحتملن شيئاً من المجد العالمي مهما كان تافهاً، فكم بالحربي المجد الإلهي أو المجد الروحي... امرأة إن ظهرت نتيجة المدرسة، وكان ابنها أول فرقته، لا يمكن أن تحتمل الفرحة، وتظل تدور على البيوت، وتقول في كل زيارة ولكل واحد "ابني أول فرقته"... امرأة أخرى إن صار ابنها طبيباً، أو حتى دخل كلية الطب، مجرد دخول، تصر على أن يسميها الناس "أم الدكتور". وامرأة أخرى إن سافر ابنها إلى الخارج في بعثة، تحاول أن تخلق مناسبة أو غير مناسبة لكي تعلن على الناس أن ابنها سافر في بعثة...!

ماذا يحدث إذن لو أن ابنة واحدة من هؤلاء كان هو الله، حاشا.. لا شك أنها تجن، ولا تحتمل... لهذا كان لابد أن يختار الله فتاة متواضعة تحتمل كل تلك الكرامة...

هذا الأمر واضح في تسبيحه العذراء إذ تقول "تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي... "لأنه نظر إلى اتضاع أمته" (لو1:48).

نظر إلى اتضاع أمته، إلى مذلتها وعزتها ويتمناها وفقرها، ولم يختبر فتاة أخرى جليلة القدر، عظيمة في نظر الناس. بل على العكس "أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين".

نلاحظ هنا إنها قالت "أمته" أي عبادته وخدمته. ونفس التعبير قالته للملك "هودا أنا أمة الرب" (لو1:38). قالت "أمته" وهي "أمه" ...

إن البشرة العجيبة لم ترفع قلب العذراء، بل ظلت كما هي في انسحاقيها. لم ترتفع إذ اختيرت دون كل نساء العالم في جميع الأجيال، لهذا المجد وهذه الطوبى. وإنما بقيت كما هي في اتضاعها، لأن شيئاً لم يحدث. لما سمعت أن أليصابات حبل في شيخوختها، أسرعت لتضع نفسها في خدمتها.

+ مقابلة العذراء لأليصابات

سمعت العذراء القدسية من الملائكة أن أليصابات حبل في شيخوختها، وأنها في الشهر السادس، فأدركت أنها ولا شك محتاجة إلى خدمة. ولم تستنكف من الذهاب إليها والوقوف إلى جوارها لخدمتها.

لم تقل في نفسها "كيف أذهب لخدمة هذه العجوز، وأنا الممتلئة نعمة، أنا المختارة من بين نساء العالم كله، أنا المباركة في النساء، أنا التي أحمل في أحشائي الله الكلمة...!". بل أسرعت، وصعدت الجبال وهي حامل، وذهبت إليها في اتضاع. وشعرت أليصابات بارتفاع العذراء في هذه الزيارة الكريمة. فقالت لها "من أين لي هذا، أن تأتي أم ربى إليّ" (لو1:43).

هذه الزيارة تعطينا فكرة سامية عن مقابلات القديسين وعن طابع الزيارات المقدسة: زيارة عجيبة يعمل فيها الروح القدس، كلها كلام روحي، وتسبيح لله. لم يتكلم فيها أحد كلاماً خارجاً أو كلاماً زائداً، بل كلها للبيان. وزيادة فيها كل واحد يتضع

للآخر: العذراء تتضع وتأتي لخدمة أليصابات، وأليصابات تقول في اتضاع للعذراء "من أين
لي هذا أن تأتي أم ربي إلى..."

وكانت زيارة تعطي فكرة عن مكانة العذراء العجيبة عند الله...

إذ أنه بمجرد كلمة السلام التي ألقتها مريم العذراء إلى أليصابات، امتلأت أليصابات من الروح القدس، وتنبأ، وارتکض الجنين بابتهاج في بطنهما. انظروا ماذا يقول الكتاب "فلما سمعت أليصابات سلام مريم، ارتکض الجنين في بطنهما، وامتلأت أليصابات من الروح القدس" (لو: 41). واعترفت أليصابات بهذا فقالت للعذراء "هودا حين صار صوت سلامك في أذني، ارتکض الجنين بابتهاج في بطني".

صدقوني أبني وقفت مندهلاً أمام هذا العبارات العجيبة...!

ما هذه الموهبة العظيمة التي للعذراء؟! مجرد أن يدخل سلامها في أذن أليصابات. تمتلىء أليصابات من الروح القدس...! هذا عجيب حقاً... تصوروا أن إنساناً يدخل إلى بيت، ويقول للموجودين "صباح الخير يا جماعة"، فيمتلىء هؤلاء من الروح القدس، ويتبنّاؤن!!... هكذا حدث من العذراء. وأرانا رب أنه من أول وهلة للحبل المقدس، أعطى هذه الكرامة العظيمة للمستودع الذي حل فيه... ويزيد هذه الأعجوبة عمقاً أنها تمت بمجرد السلام: أعني أن العذراء لم تضع يدها على رأس أليصابات، ولم تقدم عنها صلاة، ولا تشفع لها بكلمة بركة. ولكن بمجرد أنها سلمت عليها حل كل تلك البركات...

هل أنت كذلك يا أخي: إذا زرت بيّنا، يمتلىء أهل هذا البيت من الروح القدس وتتحل عليهم المawahب... ويتبارك البيت بوجودك؟ هل يكون وجودك بركة لهذا البيت، مثلما كان وجود العذراء في بيت أليصابات ومثلما كان إيليا في بيت الأرملة، وأليشع في عليه الشونمية. ليتك تكون كذلك. أعود بك مرة أخرى لنتائج تأملاتنا في زيارة مريم لأليصابات:

نلاحظ في هذه الزيارة، أن روح الإعلان والكشف بدأ يعمل في القدس أليصابات... رفع الله عنها الحجاب فبدأت ترى المخفيات والمحجبات...! ما دلائل ذلك؟ سنرى الآن:

قالت أليصابات لمريم "من أين لي هذا، أن تأتي أم ربي إلى...".

كيف عرفت أن هذه هي "أم ربي"؟ كيف عرفت أن الرب قد حل فيها؟ أليس حقاً أن القدسية أليصابات قد أدركت ما لم يستطع إدراكه أريوس ونسطور بعد مئات السنين على الرغم من مكانتهما العلمية والكهنوتية؟! بل من أين لأليصابات أن تعرف بحبل العذراء حتى تقول "ومباركة هي ثمرة بطنك"؟! ومن أين لها أن تعلم بأن العذراء "قد آمنت بما قيل لها من قبل الرب"؟!

كيف أتيح لها أن تعرف ما قاله الملاك للعذراء، والعذراء لم تكن قد أخبرتها بعد بشيء...؟! حفأ إن "سر الرب لخائفه" كما يقول الكتاب (مز 25: 14). إنها لم تعرف فقط "ما قيل لها من قبل الرب" وإيمانها به، وإنما هي أيضًا حيت العذراء بنفس العبارة التي قالها لها الملاك "مباركة أنت في النساء" (لو 1: 28، 42) ... هذا عجيب...

وأمام عظمة العذراء، أو بالحرى أمام عظمة ابنها، تصاغرت أليصابات وتضاءلت، ونيست ما قيل عن عظمة ابنها... لقد قيل عن ابنها أنه "يكون عظيمًا أمام الرب" وأنه "يرد كثريين إلى الرب إلههم" وأنه "يتقدم أمامه بروح إيليا وقوته" وأنه "يهبئ للرب شعيباً مستعدًا" وكثيرون سيفرون بولادته". ولكن كل هذا تضاءل أمام ما قيل للعذراء من قبل الرب... نسيت أليصابات كل عظمة ابنها وهي واقفة أمام أم ربها. وكما أن يوحنا اختلفى لكي يظهر المسيح، كذلك اختلفت عظمته وهو جنين، أمام عظمة الجنين الإلهي. وعلى رأي الشاعر "في طلعة الشمس من ذا يبصر الشهب"؟!

مكثت العذراء ثلاثة أشهر عند أليصابات، بقيت معها طوال شهور الحمل الأخيرة حتى وضعت... هذا يظهر لنا صفة جميلة أخرى وهي **روح الخدمة عند العذراء**. كانت فتاة خدومة، تحب خدمة الآخرين وتتعصب لأجلهم. كانت كابنها الذي "لم يأت ليخدم، بل ليخدم ولبيذل نفسه فدية عن كثريين" (مز 10: 45).

ومحبتها لخدمة الناس تابعتها باستمرار وكانت سبب المعجزة الأولى للمسيح في عرس قانا الجليل. فلما رأت أن الخمر قد فرغت، وأصبح الأمر محرجاً لأصحاب العرس إذ ليس لديهم ما يقدمونه للمدعويين، تحنن قلب العذراء عليهم وتشفعت فيهم لدى ابنها الحبيب حتى يحل لهم الإشكال، ثم قابلت الخدم وقالت لهم "مهما قال لكم فأفعلوه" (يو 2: 3-5). ومن أجلها أجرى المسيح المعجزة وفرح الناس في عرسهم.